دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	المدينة و التشكيل
المصدر:	مجلة آفاق
الناشر:	إتحاد كتاب المغرب العربى
المؤلف الرئيسي:	العروسي، مليم
المجلد/العدد:	ع 2
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1992
الصفحات:	48 - 52
رقم MD:	519723
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	أفريقيا ، الثقافة العربية ، الحضارة العربية ، الفن التشكيلي ، الفن المعماري ، المغرب، الأحوال السياسية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/519723

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

المدينـــة والتشكيـــل

• مليـــم العروســـي

عندما نتحدث عن المدينة فإننا نتحدث بدون شك عن شكل من الحياة «أرقى» من شكل الحياة الذي توجد عليه وتمارسه ساكنة البادية. وينطبق هذا حتى على كلامنا ونحن نفرق بين المتحضر والمتبربر. لكن عندما نربط التشكيل بالمدينة فهل معنى هذا أننا بدأنا نفهم على أن التشكيل شكل من أشكال التعبير الراقية ولذا وجب أن يرتبط بالحضر ؟ فتفكيرها بعبارة واضحة يتجه نحو كل ما هو مدني : نقول ونطالب بالمجتمع المدني ؛ نتحدث عن الطرق والوسائل المتحضرة، نطالب بمعاملتنا بطريقة المتحضرين ؛ ونريد أن يفهم الآخرون أننا متحضرون.

من يكون الآخر إذن ؟ أهو المتوحش أم المتبربر أم الهمجي أم البدوي؟ فيما تختلف المدينة عن الفضاءات الأخرى إن كان الأمر يتعلق بفضاءات ؟ هل هناك فرق في المعنى الأصلي والوجودي بين الحياتين ؟

أغامر فأقول : «إن زماننا لا نعرف له إسما». وتعرفون أن للإسم سلطة إخراج الشيء من التحجب والارتفاع به إلى مستوى الانوجاد. صحيح أننا نعيش وسط عالم نسميه بأسماء معينة لكنها تجووزت منذ زمان بعيد. فكلمات مثل مدينة، حاضرة التي نستعملها للدلالة على الأدغال الحجرية التي نعيش داخلها في هذا الزمان، لم تعد تفي بما نطقت من أجله. لا يتعلق الأمر باللغة العربية فقط بل حتى في اللغة الفرنسية ؛ (أقول الفرنسية لأنها اللغة الأجنبية الوحيدة التي يمكنني مساءلتها.) فكلمة Ville والتي غالبا ما تقابل كلمة مدينة في العربية لا تقول شيئا غير الإقامة بمكان ذي كلأ أو زرع.

ولكي نجد ما يقارب فهمنا للمدينة بصفة عامة يجب الرجوع إلى المعنى Cité في الاغريقية حيث كان الأمر يتعلق بكونفدرالية قبلية تجمعها روابط دينية وسياسية مشتركة. أما فيما عدا ذلك فإننا نجد كلمة مدينة مقابلة لكلمة بادية. ترى هل لا زالت الأمور كما كانت عليه أو كما هي على الأقل في مستوى المنطوق والمصرح به ؟ أظن أننا قد نتيه في مسارب القول إذا نحن أردنا التحدث عن المدينة بهذه الطريقة. قد نخطئ التفكير إذا نحن اتبعنا طريقة عدد من المفكرين في المغرب على

هذا العهد ونتحدث عن ترييف المدينة ونحن نترجم كلمة تقنية بالفرنسية Rusalisation de la ville. إننا ونحن نتكلم هكذا نبقى سجناء النسق الخلدوني في التفكير والمتعلق بتلك العداوة التاريخية الموجودة في اللغة وفي الممارسات السياسية والثقافية والاجتماعية ما بين البادية والمدينة. أظن أن الأمر أصبح الآن على خلاف ذلك. كيف ؟

يجب أن لا ننخدع بواقع معين ؛ صحيح أن وصول عدد كبير من ساكنة البوادي إلى مصادر القرار السياسي والأمني قد أعطى لنوع من التصرف Comportement البدوي سلطة صدارة ما في المغرب ؛ لكن لا يجب أن نفهم عدم التمكن من تقنيات وسلوكات معينة على أساس أنه نزعة فكرية أو نسقا محكما. إن البدوي أو أنماط البدو الذين نحن بصددهم لم يدخلوا حلبة الصراع السياسي والسلطوي بصفتهم بدوا يدافعون عن البداوة كنمط في التفكير ؛ بل بصفتهم متعلمين متمكنين، لكن الطبيعة تغلب بعضهم. نطمح إلى أن نفهم من قولنا أن البشرية تسير حسب مشروع معين نحو المدينة، وهذا المشروع ليس وليد اليوم أو الأمس القريب، بل هو آت من زمان بعيد.

فالمدينة تعني أصلا الاقامة، ومَدَن بالمكان أقام به. إن انبجاس لفظ مدينة تأتّى مع وقوف الرُحَّل في الأرياف والاقامة أو الحضور على الماء والكلإ. والكلمة كانت قدحية في زمانها حيث كان يقدم المقيم وكأنه مملوك من طرف الأرض ؛ وبما أن الإقامة والمعاشرة تحتاج إلى سَنٍّ قوانين تتجاوز قوانين الدم والقرابة فإن المقيم يصبح محكوما (مملوكا) بقانون يخلقه ويطبقه غير القريب الذي هو فرد من العشيرة. «وسميت مدنهم بالحواضر لأنهم حضروا مساكن الديار التي لهم بها قرار» (لسان العرب).

وعند البحث والتنقيب في معاني الكلمات تجد أن المقيم بالمدن كان أصلا من فصيلة القوم المسماة حثالة. ونجد حتى الآن في العلاقات الاجتماعية عند رُحَّل الصحاري المغربية الجزائرية والموريتانية وحتى الليبية ذلك الاحتقار المقيم والصانع الذي يرتبط بمكان ما ويدافع عنه.

وبقيت المدينة تعيش تحت رحمة البادية وفي صراع معها، وهنا يمكن أن نفهم عددا من الشرائع والديانات كوسيلة نظرية وعملية لتسكين الرُحَّل Les nomodes وربطهم بمكان إقامة رمزي. وقام الاسلام في هذا الباب بمجهود فريد. ويمكننا إذا حاولنا تحليل قواعد الاسلام بطريقة مخالفة للعادة أن نرى فيها تنظيرا لفكر إقامي Scdoutaire. فلنقرأ القواعد الخمس حسب التسلسل الآتي :

1. الشهادتان، ويطلب من المرء التسليم من غير دليل عقلي أو تحت سلطة السيف.
2. الصلاة هي مراقبة النفس وضبطها وتذكيرها في كل لحظة بوحدانية المعبود وأحدية المقصود.
3. الزكاة، وهي التنازل عن قسط من المجهود الشخصي لصالح جيش المسلمين وفي ذلك تنازل رمزي وعملي عن القتال العشائري وتركه لمن كلف به من العباد.
4. الصوم، وفي ذلك امتناع وتدريب على الاستغناء عند الضرورة عن كل ما كان يسبب الحرب (الشهوات، المعاش، الشرف ...)
5. الحج، وهو مطمح كل مسلم، حيث يذهب للخضوع للمراقبة أمام الملأ حول بيت الله (رمزيا يظن المسلم العادي أن الله قابع داخل الصندوق المكعب المسمى كعبة).

هناك إذن تنظيم للترحال العقائدي وتنظيم وتصريف للطاقات الشهوية والحيوانية حول مكعب قد يمثل رمزيا الحجر الأساس للمدينة ويسمى فعلا بيتا. يقول الإسلام ضمنا أو صراحة : «إنك مقيم حيثما كنت ما دمت توجه وجهك كل يوم صوب نفس المركز».

الإسلام إذن عقيدة تطمح (من جملة ما تطمح إليه) إلى تثبيت وتسكين الرُحَّل ولو رمزيا. إنه فكر مديني أو يطمح إلى تمدين الناس (العباد). ونعلم جميعا أن الاسلام ناتج عن علاقة مستمرة بين البادية كجاهلية وكتوحش وبين المدينة حيث كان النبي ﷺ يرعى مصالح خديجة التجارية ذهابا وإيابا بين مكة والشام. وتأسس الإسلام انطلاقا من خروج محمد من قوقعة القبيلة لينفتح على الطبقات الاجتماعية (العالمين) ؛ ثم ليستقر (بعد الهجرة) بيثرب والتي سميت فيما بعد «المدينة». بل إن هناك من يروي حديثا يقال أنه صدر عن النبي وفيه : [«ثلاث من الكبائر، منها التعرب بعد الهجرة» وهو أن يعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب. وكان من رجع بعد الهجرة إلى موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد] (لسان العرب). يظهر جليا الآن أن المشروع البشري المتجه نحو المدينة قد بدأ منذ زمان بعيد، كما يظهر أن الإسلام لا يمثل إلا ذروته ووصوله إلى مستوى تثبيته كعقيدة.

لا نجد موازاة لذلك في كتب الأولين ما يدلنا على سبب نفور الناس من البادية كما لا نجد في اسمها ما يدل على ذلك. فمعناها في العربية كما في الفرنسية هي كل ما بدا من السهل ؛ أي كل ما ليس بجبل أو غابة أو ريف. الأكيد أن أصل العداء يوجد بين نوعين من التفكير وبين نمطي إنتاج، تفكير المقيم على ضياعه ونخله وحرفته وهؤلاء هم أهل الحضر ؛ وتفكير الراعي الساهر على مساقط الغيث والمتنقل من أجل كلإ ومراعي بهيمته.

وبما أن المستقر والمقيم يكون معرضا باستمرار لهجوم الرَحَّال الذي لا يدافع عن مقام، فكان لا بد للحضري أن يحصن مدينته ويدافع عنها ؛ بل أكثر من هذا لا يمكن للمدينة أصلا أن تكون إلا إذا توفرت الشروط التي نجدها في النص التالي :

«وتبين له (أي ادريس الثاني) أن دار مقام أبيه لم تعد تكفيه، وعزم على أن يغادر الجبل ويؤسس مدينة يستقر فيها. وقد جمع لهذه الغاية عددا من المعماريين والمهندسين فحصوا بدقة كل السهول المجاورة للجبل ونصحوه ببناء المدينة في الموقع الذي بنيت فيه، كانت هنا عيون عديدة ونهر كبير ينبع من سهل لا يبعد كثيرا عن تلك العيون»

ولقد تأتى له ذلك بعد أن

«حقق انتصارات مجيدة، ففتح عدة بلدان حتى تكاثر عدد الأسر والجنود التابعين له تكاثرا عظيما»

ليون الافريقي «وصف افريقيا»

نستطيع القول وحتى نرتبط فقط بما يهمنا داخل هذا النص أن هم المدني كان بالأساس هو الهاجس الأمني ؛ خصوصا وأن البدوي عندما كان يهجم على المدينة لم يكن يكتفي بأخذ ما هو في حاجة إليه من مأكل وملبس بل كان يهتك الأعراض ويختطف النساء والأطفال. تسترت المدينة إذن داخل أسوارها وتستر كل منزل وراء حيطانه واستقرت الحياة داخل البيوت وكانت البيوت متسترة

بعضها عن بعض. كان وسط الدار خاليا إلا من النافورة أو بعض المغروسات إذ توفرت الأسباب لذلك. إن هالة الحشمة والحميمية والأخلاق تجد بعض تفسيراتها في تغليف الحريم داخل ثوبه لكن وأيضا داخل الجدران. كانت الدار لا تهتم بمظهرها الخارجي إلا بما يظهر قوة جدرانها وصلابة حيطانها ؛ لم يكن جمال الدار الخارجي يهم لأن العيش كان داخل الدار. بل كانت الدار تمثل جزءا من العشيرة التي تنازل المدني عنها في المعاملات الخارجية. لذا ربما، كانت الدار تسمى الأصل !!

إن زماننا انتهى أو يكاد من هذه الأمور. لقد انتهى الزمان الذي كانت تتكون فيه الدول في البادية بين أوساط الرعاة وشيوخهم أو تحت سعف النخيل. كان يكفي للبادية أن تثور لكي تسقط المدينة في البداوة. لقد انتهت كل دواعي التفكير الخلدوني (أي التفكير الدائري : بداوة ــ حضارة ــ بداوة) ودخلنا زمنا لم نُسَمِّهِ بعد. أليست هجمة الحضارة والفكر الجديدين (لا أستعمل «**جديدا**» هنا بالمعنى الإيجابي أو السلبي، بل بمعنى الحادث الذي جاء بعد شيء سبقه)، على العراق، ممثلا لكل قيم البداوة مع تملكه لبعض مظاهر العهد الجديد، كافية لإيضاح ذلك ؟ لم يكن ينقص العراقيين الشجاعة بل إن امتلاكها بشكل مبالغ فيه كان سببا في هلاكهم لأن الشجاعة والفحولة والصدق والوفاء هي كل ما باستطاعة البدوي أن يقدمه كقيمة في هذا الزمان ؛ لكن الخوف والخنث والخيانة مفاسد من أخلاق المدنيين وهي في نفس الوقت عملة سياسية وحربية وتجارية مسموح بها شريطة أن تؤدي إلى نتيجة. ولقد سمعنا كل هذا خلال الحرب المذكورة وسمعنا الحلف المعادي للعراق يستعمل طرائق تستفز رجولة وفحولة البدو.

فالهاجس الأمني لم يبق مشكلة من مشاكل المدني بل هو هوس بدوي الآن. إن التاريخ المعاصر غير بدوي على الاطلاق ؛ لكن هل هو مدني ؟ أتحفظ في ذلك ولي سند في الآتي : لقد أصبحت المدينة (أو تلك الأدغال الحجرية أو الحديدية التي ندور داخلها) مفتوحة. فعوض الالتفاف حول نفسها وحجب كل شيء نحو الداخل أصبحت تعري كل شيء وتشرع مداخلها على الخارج. فهل يعقل أن تبنى مدينة جديدة وتوضع لها الأسوار ؛ وهل يعقل أن نبني دارا الآن ونفتح النوافذ على باحتها فقط ؟ كل واحد يطمح إلى أن يتكئ على شباك شرفة منزل جميل وينظر إلى الأفق وإلى المارة. إن حديقة الفيلا (والتي تقوم مقام الجنينة التقليدية) تستقبل الزائر كما تستقبله الأمتعة التي يمتلكها رب المنزل. إن تطور فكرة الواجهة الزجاجية (Vitrine) حتى عند الناس المتوسطي الدخل لتعتبر علامة على خروج الإنسان من قوقعة الحجاب (لا أتحدث هنا عن بعض ردود الأفعال البدوية سواء تمثلت في الوطنية كالموقف العراقي أو في الموقف الديني المتعصب).

أصبح للساحة إذن دورها، وللشارع دوره سواء في الثقافة أو التجارة أو السياسة. أصبح الشارع مكانا للعيش، ففيه تستقطب الآراء السياسية، وفيه يمكن للمبدع أن يمتحن شعبيته، وأصبح ينافس المدرسة في تربية الناشئة. وكما أن الممارسات الإنسانية كلها وجدت لها مكانا في الشارع فإن التشكيل أو الفن التشكيلي أو الفن بعبارة أعم كان لابد وأن يطالب بمكانه في هذا الفضاء الزنقوي. فهل هذا معقول ؟

إن أكثر الأشياء حميمية بالنسبة للمقيم القادم من البداوة هي المرأة ومكان النوم والأكل ... بعبارة أوضح كل أماكن اللذة والتلذذ. لكننا نجد أن زماننا يضع كل هذه الأمور في الواجهة للتباهي بها ؛ ألهذا يحاول الفن بما هو انتشار للرغبة وتحقيق لِلذَّة أن يجد له مكانا في الساحة العمومية ؟

صحيح أن مساحة المنزل قد تقلصت بشكل رهيب وأصبحنا نلاحظ تقدم الأماكن العمومية : مسرح عمومي (أو خاص) مكتبة عمومية متحف عمومي حديقة عمومية وهذه كلها أماكن للمتعة ولتصريف اللذة فهل يطالب الفن التشكيلي بوجوده على هذه الطريقة أم بكيفية أخرى ؟

إننا لو حاولنا حصر معنى الفن التشكيلي في اللوحة (تصوير صباغي : Peinture) لقلنا أن هذا النوع من الممارسة الفنية تلزمه الحميمية أكثر من الاستعراض في الشارع. فالفن الذي يهتم بنفسه كوجود في الشارع وفي الساحات العمومية معروف لكنه غالبا ما يكون من مهمة المهندس المديني L'Urbaniste وليس من مهمة الفنان المنتج. يجب أن يفهم هنا أنني أتكلم ويتخلل حديثي بعض الغموض :

1. إنني أتحدث عن الفنان التقليدي بمعنى ذلك الشخص الذي يملك مكانا يسميه محترفا وينعزل ثم يشتغل بعيدا عن ضوضاء الشارع (لا يعني هذا أنه يعيش في برجه العاجي لكنه لا يترك لأحد الحق في أن يشاركه عمله).
2. إنني أتحدث عن التشكيل وكأنني أقصي المعماري والذي هو الأساس في المدينة. إن المهندس المعماري هو السلطة التي تخلق المدينة. صحيح أن الضرورة تقضي بأن تتخذ السلطة المالية أو السياسية أو الأمنية أو الشخصية القرار لبناء مسكن أو مرفق ما، لكن سلطة المعماري فوق كل الشبهات ؛ فهو الذي يقرر شكل البناء الخارجي (أو هكذا يخيل لي) وهو الذي يضع تصورا للمحيط وضمن المحيط يمكن للفنان وبطلب من المعماري أن يتدخل ... فهل حدث هذا ؟

هناك إذن فلسفة تُسيِّر نمط بناء المدن وتركيبتها المعمارية ؛ فهل يدرك الفنان والمعماري هذه الفلسفة ؟ لا أشك في ذلك، لكن ما هو السبب في قبح جل المحيطات التي تحيط بنا ؟ ألأنَّنا جُهَّل لم نرق بعد إلى ما يريد قوله فنانونا ومعماريونا ؟ أم أن هناك تواطؤاً ميركانتيليا بين المعماري والفنان ؟ هل أكون قد فهمت كل شيء على عكسه ويكون للسلطة دور رهيب في قتامة ما يحيط بنا ؟

من الأكيد أن الفنان يطلب منه التدخل بعد الكارثة، لكن أيمكن لفنان أصيل أن يرمم ويتدخل في فضاء لم يساهم في وضع تصوره مسبقا ؟ لقد رأينا تدخل الفنانين المغاربة في فضاءات متعددة ولاحظنا أن هذا التدخل لم يكن إلا نقلا للعمل كما هو على الفضاء المسطح (أي فضاء القماش أو الورق أو الخشب ...) إلى الحائط. إن العمل الفني لم يتأثر في غالب الأحيان بالمحيط وبطريقة التدخل. فأين يكمن المشكل ؟

أتمنى أن يكون في تدخل الإخوة الفنانين والمعماريين جزء من الجواب.